فضل قيام الليل

قيام الليل سُنة مؤكدة، وقربة معظمة في سائر العام، فقد تواترت النصوص من الكتاب والسنة بالحث عليه، والتوجيه إليه، والترغيب فيه، ببيان عظم شأنه وجزالة الثواب عليه، وأنه شأن أولياء الله، وخاصة من عباده الذين قال الله في مدحهم والثناء عليهم: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [يونس، الآية: 64]. فقد مدح الله أهل الإيمان والتقوى، بجميل الخصال وجليل الأعمال، ومن أخص ذلك قيام الليل، قال تعالى: «إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [السجدة، الآيات: 17-15] ووصفهم في موضع آخر، بقوله: «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِلَى أَنْ قَالَ: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» [الفرقان، الآيات: 75-64]. وفي ذلك من التنبيه على فضل قيام الليل، وكريم عائدته ما لا يخفى وأنه من أسباب صرف عذاب جهنم، والفوز بالجنة، وما فيها من النعيم المقيم، وجوار الرب الكريم، جعلنا الله ممن فاز بذلك. قال تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» [القمر، الآيتان: 54، 55].

وقد وصف المتقين في سورة الذاريات، بجملة صفات – منها قيام الليل –، فازوا بها بفسيح الجنات، فقال سبحانه: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» [الذاريات، الآيات: 17-15].

فصلاة الليل لها شأن عظيم في تثبيت الإيمان، والإعانة على جليل الأعمال، وما فيه صلاح الأحوال والمآل قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا» إلى قوله: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا» [المزمل، الآيات: 6-1].

وثبت في صحيح مسلم عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: أفضل الصلاة بعد المكتوبة – يعني الفريضة – صلاة الليل وفي حديث عمرو بن عبسة قال صلى الله عليه وسلم: أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن ولأبي داود عنه – رضي الله عنه – قال: أي الليل أسمع – يعني أحرى بإجابة الدعاء – قال، صلى الله عليه وسلم: جوف الليل الآخر فصل ما شئت، فإن الصلاة فيه مشهودة مكتوبة وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر. فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟! من يسألني فأعطيه؟! من يستغفرني فأغفر له؟!

وفي صحيح مسلم، عن جابر – رضي الله عنه – أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا إلا أعطاه إياه، وهي كل ليلة، وفي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من تعار من الليل – يعني استيقظ يلهج بذكر الله – فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: اللهم ! اغفر لي، أو دعا، استجيب له. فإن توضأ وصلى قبلت صلاته.

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن أبي مالك الأشعري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إن في الجنة غرفا، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [السجدة، الآية: 17].

وجاء في السنة الصحيحة، ما يفيد بأن قيام الليل من أسباب النجاة من الفتن، والسلامة من دخول النار. ففي البخاري وغيره عن أم سلمة – رضي الله عنها – أن النبي، صلى الله عليه وسلم، استيقظ ليلة فقال: سبحان الله، ماذا أُنزل الليلة من الفتنة؟ ! ماذا أنزل الليلة من الخزائن؟! من يوقظ صواحب الحجرات؟ ! وفي ذلك تنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن.

وفي قصة رؤيا ابن عمر قال: «فرأيت كأن ملكين أخذاني، فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان – يعني كقرني البئر – وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا ملك آخر. فقال: لم ترع فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل، فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا.

وأخرج الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن أبي أمامة الباهلي – رضي الله عنه – عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم

فتلخص مما سبق أن قيام الليل:

– من أسباب ولاية الله ومحبته.

– ومن أسباب ذهاب الخوف والحزن، وتوالي البشارات بألوان التكريم والأجر العظيم.

– وأنه من سمات الصالحين، في كل زمان ومكان.

– وهو من أعظم الأمور المعينة على مصالح الدنيا والآخرة ومن أسباب تحصيلها والفوز بأعلى مطالبها.

– وأن صلاة الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة وقربة إلى الرب ومكفرة للسيئات.

– وأنه من أسباب إجابة الدعاء، والفوز بالمطلوب المحبوب والسلامة من المكروه المرهوب ومغفرة سائر الذنوب.

– وأنه نجاة من الفتن، وعصمة من الهلكة، ومنهاة عن الإثم.

– وأنه من موجبات النجاة من النار، والفوز بأعالي الجنان.

فضل الصيام

قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: «ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن أبي هريرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: قال الله –عز وجل–: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل: إني صائم، إني صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه.

وقال أيضا: «إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، فلا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد».

وعن عبدالله بن عمرو أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، فيشفعان».

وعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه–: أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لا يصوم عبد يوما في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفا».

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لما حضر رمضان: «قد جاءكم شهر مبارك افترض عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم».

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

والصيام باب من أبواب الخير: فعن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟!» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».

والصيام لا مثل له: فعن أبي أمامة –رضي الله عنه– قال: أتيت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقلت: يا رسول الله، مرني بأمر ينفعني الله به. قال: «عليك بالصيام، فإنه لا مثل له».

والصوم باب يؤدي إلى التقوى: قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» (البقرة: 183).

وكلما أكثر المرء من الصيام باعد الله بينه وبين النار: فعن أبي سعيد –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله تعالى إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا».

فهذا في صيام يوم واحد، فكيف بمن صام يوما وأفطر يوما، أو صام الاثنين والخميس، وثلاثة أيام من كل شهر؟!

ومن فضائل الصيام أن دعاء الصائم مستجاب، ولكل مسلم في كل يوم من رمضان دعوة مستجابة: فعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «إن لله تبارك وتعالى عتقاء في كل يوم وليلة – يعني في رمضان – وإن لكل مسلم في كل يوم وليلة دعوة مستجابة».

وقد قال تعالى: في أثناء آيات الصيام: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» (البقرة: 186)، ليرغب الصائم بكثرة الدعاء.

وقفات رمضانية

صوم رمضان محك للإرادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية، ورمز للتعبد من صورته العليا، ورياضة شاقة على هجر اللذائذ والطيبات، وتدريب منظم على تحمل المكروه من جوع وعطش، ونطق بحق، وسكوت عن باطل.

والصوم درس مفيد في سياسة المرء لنفسه، وتحكمه في أهوائه، وضبطه بالجد لنوازع الهزل واللغو والعبث.

وهو تربية عملية لخلق الرحمة بالعاجز المعدم؛ فلولا الصيام لما ذاق الأغنياء الواجدون ألم الجوع، ولما تصوروا ما يفعله الجوع بالجائعين.

وفي الإدراكات النفسية جوانب لا يغني فيها السماع عن الوجدان؛ فلو أن جائعا ظل وبات على الطوى خمس ليال، ووقف خمسا أخرى يصور للأغنياء البطان ما فعله الجوع بأمعائه وأعصابه، وكان حاله أبلغ في التعبير من مقاله، لما بلغ في التأثير فيهم ما تبلغه جوعة واحدة في نفس غني مترف، ولذلك كان نبينا محمد –عليه الصلاة والسلام– أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يدارسه جبريل القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة.

رمضان نفحات إلهية تهب على العالم الأرضي في كل عام قمري مرة، وصفحة سماوية تتجلى على أهل الأرض فتجلو لهم من صفات الله عطفه وبره، ومن لطائف الإسلام حكمته وسره؛ فلينظر المسلمون أين حظهم من تلك النفحة، وأين مكانهم من تلك الصفحة. ورمضان مستشفى زماني يجد فيه كل مريض دواء دائه، حيث يستشفي فيه مرضى البخل بالإحسان، ومرضى البطنة بالجوع والعطش، ومرضى الخصاصة والجوع بالكفاية والشبع.

شهر رمضان عند الأيقاظ المتذكرين شهر التجليات الرحمانية على القلوب المؤمنة ينضحها بالرحمة، ويفيض عليها بالروح ويأخذها بالمواعظ، فإذا هي كأعواد الربيع جدة ونضرة، وطراوة وخضرة.

وإنها لحكمة أن كان شهرا قمريا لا شمسيا، ليكون ربيعا للنفوس، متنقلا على الفصول، فيروض النفوس على الشدة في الاعتدال، وعلى الاعتدال في الشدة، ثم إن رمضان يحرك النفوس إلى الخير، ويسكنها عن الشر، فتكون أجود بالخير من الريح المرسلة، وأبعد عن الشر من الطفولة البريئة.

ورمضان يطلق النفوس من أسر العادات، ويحررها من رق الشهوات، ويجتث منها فساد الطباع، ورعونة الغرائز، ويطوف عليها في أيامه بمحكمات الصبر، ومثبتات العزيمة، وفي لياليه بأسباب الاتصال بالله، والقرب منه.

رمضان نقطة بداية وليس خط نهاية

شهر رمضان كان فرصة للتغيير، فرصه لكسب المزيد من المهارات، ففي رمضان تعلمنا كيف ننظم الوقت نأكل في موعد محدد ونمسك عن الطعام في وقت محدد، وتتعلم منه أيضا فن الاتزان فنحن في رمضان نوازن بين غذاء الروح وغذاء البدن ففي بقية شهور السنة نركز على غذاء البدن ونهمل غذاء الروح فيحدث الكسل والفتور وعدم المقدرة على العبادة أما في رمضان فيزيد تركيزنا على غذاء الروح مثل الذكر وقيام الليل وقراءة القرآن فتنشط الروح وإذا نشطت الروح أصبح الجسد قادرا على الطاعة والزيادة فيها، ونتعلم من رمضان أيضا الصبر والمسامحة والإيثار فكثيرا ما كنت أجد على مائدة الإفطار اخوة لي قبل أن يأكل أحدهم تمرته ينظر إلى من بجانبه فان لم يجد أمامه تمرا آثره على نفسه والكثير من الأخلاق، فلماذا بعد رمضان نترك كل هذا بعد أن تعودنا عليه وعندي مثال لرجل يمتلك سيارة قام بإدخالها إلى مركز الصيانة لعمل صيانة لها وإصلاح ما فسد فيها ثم بعد أن تمت عملية الصيانة اللازمة لها وتزويدها بالبنزين أوقف السيارة ولم يستعملها . . . فهل هذا معقول بعد أن أصبحت السيارة قادرة على السيرة بسرعة وبقوة يتركها.

فهذا الحال يحدث بعد رمضان فبعد أن يتم شحن بطاريات الإيمان فينا ونصبح قادرين على المضي في طريق الهداية والإيمان نتوقف ونهمل أنفسنا ونتصالح مع الشيطان ونركز على البدن في الغذاء لا على الروح والبدن معا.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.